الرؤية ما بعد الاستعماريّة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي

استاذ مشارک روح الله نصیری (الکاتب المسؤل)
r.nasiri@fgn.ui.ac.ir
الباحثة. زهراء پورحمدانیان
Z.hamdanian@fgn.ui.ac.ir
قسم اللغة العربية و آدابها،كلية اللغات الاجنبية، جامعة اصفهان،ايران

The post colonial vision in the novel of a bridge to revelation and another for nostalgia

Associate Professor Ruhollah Nasiri (responsible writer)
Zahra Pour hamdanian
artment of Arabic Language, Literature, Faculty of Electronic Languages, University of Isfahan, Iran

المستخلص

تعدّ الرّواية من الأنواع الأدبيّة التي سايرت الإنسان في طرح مشاكله وأزماته وهواجسه الداخليّة والخارجيّة المتأثّرة بالتغييرات التي أفرضت على الإنسان في العهد الحديث. الرّواية الجزائريّة كذلك لم تكن بمستثناة عن الرويات الأخرى بل خدمت الرواية الجزائريّة الأدباء الجزائريين وكذلك الشعب الجزائري في مواجهة الآخر المستعمر. النظريّة ما بعد الاستعماريّة من النظريّات الأخرى التي حفلت بها الرواية الجزائريّة. بسبب أن زهور ونيسي من أهمّ الرّوائيّات الجزائريّات واللاتي ساعدن على توجيه الرواية الجزائريّة نحو الموضوعات المهمّة يعالج هذا المقال الرّؤية ما بعد الاستعماريّة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي وفقاً للمنهج الوصفي التحليلي. من النتائج التي توصّل إليها هذا المقال هي أنّ قضيّة الاغتراب على أشكاله المتنوّعة و قضيّة الآخر وتناوله من جانب الشخصيّات الجزائريّة وتحليل خطّطه وأفكاره وفكرة التحرير وذكرى الوطن من الموضوعات الفرعيّة الأخرى التي عبّرت عن فكرة الروائيّة ورؤيتها لما بعد الاستعماريّة وأنّ ظاهرة الاغتراب على أشكالها الثلاثة أي الاغتراب المكاني والزّماني والذّاتي من الموضوعات الأكثر نجاحاً وأهميّة والتي أجادت الرّوائيّة في أخذها أساليب للكتابة ما بعد الاستعماريّة.

المفردات الرئيسيّة؛ الرؤية ما بعد الاستعماريّة، الرواية الجزائريّة، زهور ونيسي، رواية جسر للبوح وآخر للحنين.

Abstract

The novel is one of the literary genres that accompanied man in presenting his internal and external problems, crises, and concerns affected by the changes imposed on man in the modern era. The Algerian novel was also not excluded from other novels, but rather served the Algerian writers as well as the Algerian people in the face of the colonial other. Post colonial theory is one of the other theories that the Algerian novel full of , and Because Zuhur wanasi is considered the most important Algerian female novelists who helped directing the Algerian novel towards important topics this article deals with the post colonial vision in the novel of A Bridge for Revelation and another for Nostalgia for Zuhur wanasi according to the descriptive analytical approach. One of the findings of this article is that the issue of alienation in its various forms and the issue of the other is dealt with by Algerian personalities and the analysis of the steps and the ideas with The idea of liberation and the memory of the homeland are among the other sub topics that expresses the idea of the novelist and her post colonial vision, and that the phenomenon of alienation in its three forms, i.e. spatial, temporal, and self alienation is one of the most successful and important topics that the novelist mastered in taking post colonial writing methods.

key vocabulary ; The post colonial vision, the Algerian novel, Zuhur wanasi a novel of bridge to revelation and another to nostalgia.

المقدمة

واجه الأدب في مسيرته آراء وأفكار ونظريات حسب الظروف التاريخية والاجتماعية التي خيّمت على المجتمع وتأثّر الأدب بتلك الأفكار حيث كان الأدب بمثابة السلاح الذي يحمي به الأديب نفسه ومجتمعه.نظريّة ما بعد الإستعمار من النظريات الأدبيّة الحديثة والتي وجّهت الأنظار نحو الأدب والسّياسة.

حاولت نظريّة ما بعد الإستعمار أن تفيد العالم بإلقاء الضّوء على ثقافة الشّعوب الأصليّة وهيمنة الشّعوب الغربيّة عليها وقد يعلم دارس الآداب بأن الغرب في العهد الحديث وضع الشّعوب الغربيّة في مركزيّة الثّقافة والعلم والشّرق والشّعوب المتبقّية في الهامش، ولاسيما أن وجهة النّظر هذه قد ظهرت بعد سيطرة البنيوية على الحقل الثقافي الغربي، وبعد أن هيمنت الميثولوجيا البيضاء على الفكر العالمي، وأصبح الغرب مصدر العلم والمعرفة والإبداع. في الحقيقة تعمل نظرية «مابعد الاستعمار» على فضح الإيديولوجيات الغربية، وتقويض مقولاتها المركزية على غرار منهجية التقويض «التقويض هو المصطلح الذي أطلقه الفيلسوف الفرنسي المعاصر جاك ريدا على القراءة النقديّة المزدوجة، التي اتّبعها في مهاجمته الفكر الغربي الماورائي، منذ بداية هذا الفكر حتّى يومنا هذا. إذا التّقويض هو ما تهدف إليه نظرية مابعد الحداثة، التي تودّ تقويض الفكر الغربي وتحطيم أغانيمه المركزيّة. بمعنى أنّ ما بعد الحداثة، قد تسلّحت بمعاول الهدم، والتفكيك، والتشريح لتعرية الخطابات الرّسميّة وفضح الإيديولوجيّات السّائدة المتآكلة وذلك باستخدام لغة الإختلاف والتّضاد والتناقض.» (بوختاش، ٢٠١٧، ص) التي تسلح بها الفيلسوف الفرنسي جاك ديريدا، لتعرية الثقافة المركزية الغربية، ونسف أسسها الميتافيزيقية والبنيوية.

أمّا بالنسبة إلى الرواية الجزائريّة فظلت ثورة التحرير الجزائرية حاضرة بقوة في الرواية الجزائرية كنشيد يحتفي ببطولاتها وأمجادها وتاريخها، واستمر تأثير الثورة في الكتابة الأدبيّة لمدة مديدة لكن ضَعُفَ الحديث عن ويلات الحرب والثّورة الجزائريّة بعد الإستقلال الجزائري وراح الأدب يفتّش عن خلفيّات الإستعمار الذي عمل على امتصاص هويّة الجزائري بواسطة التثقيف والهيمنة على التّراث الشّعبي وفرض قوّة المستعمر وسلطته على الشّعب الجزائري وراحت الرواية الجزائريّة تسبر غور هذه المشكلة وتعالج موضوعات حديثة فرضتها الظروف والتغيرات الزمنية.

زهور ونيسي من الروائيات الناجحات اللاتي بذلت جهداً في هذا المجال «وكانت الرواية الجزائرية ميالة وبشكل واضح للمجتمع والتطورات التي حصلت عليه وكذا الثورة وأهم أحداثها وشخوصها وكانت لاتكاد تنفك تتحدّث عن تداعيات هذه الآخيرة على عدّة مستويات ويمكننا أن نذكر زهور ونيسي وهي الكاتبة المناضلة التي سيطر حسّها النضالي على كلّ كتاباتها تقريباً.» (حياة، ٢٠١٥، ٧٤) فزهور ونيسي في روايتها جسر للبوح وآخر للحنين تُشير إلى قضايا هامّة بالنسبة إلى القضية الجزائريّة. يحاول هذا المقال أن يمعن النظر في موضوع الرؤية ما بعد الاستعمارية في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي وفق المنهج الوصفي- التحليلي.

أسئلة البحث

يحاول هذا البحث أن يردّ على السّؤالين التّاليين؛

١. ما الموضوعات والأساليب التي تحكي عن الكتابة برؤية ما بعد استعماريّة لزهور ونيسي؟

٢. أي الموضوعات تبدو أكثر نجاحاً في التعبير عن الرؤية ما بعد الاستعماريّة في رواية جسر للبوح وآخر للحنين؟

خلفية البحث

تعدّ رواية جسر للبوح وآخر للحنين من آهم الروايات النسوية الجزائرية التي تعرّضت للدراسة والتحليل من قبل كثير من الباحثين والنقّاد ولاشك أنّ هذا الأمر نفسه يحكي عن أهمية هذه الرواية ودورها البارز فى الأدب الجزائري المعاصر. من البحوث التي تناولت رواية جسر للبوح وآخر للحنين يمكن الإشارة إلى؛

تبحث سليمة صلاح في مقالها الذي يحمل عنوان «بنية المنظور الروائي في رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي» عن تموضع الصوتين المختلفين أي الراوي العليم وبطل الرواية. قامت الباحثة في مقالها بتسليط الضوء على المنظور الروائي، أي الراوي العليم والراوي المشارك ومن ثم تتوصل إلى عدة نتائج منها أنه يبنى المنظور الكلي للرواية من خلال تكامل وتلاحم عدّة أشكال سردية أو عدّة منظورات تختلف باختلاف موقع الراوي بين داخل وخارج العمل الحكائي وبين طبيعة ما يحكيه إذا كان شخصية تخييلية. طُبع هذا المقال عام ٢٠٢٠ في مجلة جسور المعرفة، المجلد السادس والعدد الرابع، صفحة ١٤٢_١٣٠.

تبحث الطالبة وهيبة قادم في رسالتها التى قدمتها لنيل درجة الماجستير والتي تحمل عنوان «جماليات الزمان والمكان في رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهورونيسي عن وظيفة الزمن داخل الخطاب الروائي والتقنيات الزمنية المستخدمة في الرواية وكذلك تبحث الباحثة عن مدى تأدية المكان الروائي لوظيفته. من النتائج التى توصلت إليها هذه الرسالة هي أنه يلاحظ على هذه الرواية اعتمادها على خاصية الاسترجاع الذي يعتمد على ذاكرة الرواي، وقد ظهرت الاسترجاعات بنسبة كبيرة، أمّا بالنسبة إلى الاستباق فهو قليل في الرواية وفيما يخص بعلاقات الديمومة ترى الباحثة بأن علاقات الديمومة أو إيقاع السرد فيُشاهد بأنها تتراوح بين القلة والكثرة إذ توجد الوقفة الوصفية

قليلة مقارنة بكثافة المشاهد. نوقشت هذه الرّسالة عام ٢٠١٣ وفي جامعة العربي بن مهيدي في الجزائر.

سميحة خليفي من الباحثات الأخر واللاتي بحثن عن رواية جسر للبوح وآخر للحنين. تطالع سميحة خليفي في مقالها «الخطاب الأنثروبوثقافي للمدينة "رواية جسر للبوح وآخر للحنين لزهور ونيسي"». يطرح هذا المقال أسئلة وهي عبارة عن: كيف قدم الروائي العربي مدينته؟ وهل جسّد حقّاً خصوصيّتها التي تميّزها عن سائر المدن؟ وهل ينتقد فيها المدينة الخراب أم يسعى لتحريرها؟. من النتائج التي توصلت إليها الباحثة هي أن الرواية سعت في تأصيل الهوية الحضارية والثقافية لمدينة قسنطينة إنطلاقاً من المعطى الأنثروبوثقافي "المألوف" الذي يمثّل رمزاً تلخيصيّاً يشكل هوية المجتمع الفلسطيني، ويعكس خصوصيّته وطبيعته، إذ يميل إلى الهدوء والخفة والرزانة في معاملاته وحركاته منفتحاً على ثقافة غيره ومتقبل لها. طُبع هذا المقال عام ٢٠٢٠ في مجلّة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلّد ٧، العدد الأوّل من صفحة ٥٥٥_٥٤٢.

ملخص الرواية

تحكي رواية جسر للبوح وآخر للحنين عن حياة كمال عطار الذي قضى أربعين سنة في الغربة وعاد بعد تلك الأعوام ليقضي ما تبقّى من عمره في مدينته قسنطينة، مدينة الجسور التي قضى كمال عطّار معظم أيّام طفولته عليها، يتذكر كمال عطّار في الرواية أحداث حياته وتفاصيل الأحداث والصّراعات التي أدّت إلى عزلته الصعبة وواقعه المرير.

فكمال عطّار وحيد لوالديه المحافظين للدين والعادات والتّقاليد، كمال عطّار هو الإبن الوحيد للعائلة المتمسّكة بقيم الثورة وأهدافها والمحافظة على الدّيانة والأعراف والتقاليد. كانت علاقة وثيقة تربط بين كمال عطّار وأمه فهي كانت كلّ شيء في حياته يأخذ

منها النصيحة والمشورة وتحثّه نحو الأفضل كما أنه حظي بأخ لم تلده له أمّه وهو مراد. عشق كمال عطّار فتاة يهوديّة جعلته يهيم يوماً بعد يوم لكنه خشي أن يخبر أباه بهذا العشق خشية من موته لشدّة وقع هذا الخبر وعظم البليّة عند الأب، تزوّج كمال العطّار من أخت صديقه مراد تلبية لطلب عائلته لكنّه فجع ببليّة أخرى وهي أن نفيسة «زوجة كمال عطّار» ماتت حيث تعسرّت عليها الولادة ومات الطفل أيضاً. تاه كمال عطّار فكريّاً حين واجه تلك الصدمات وعلق بمدينته هياماً وعشقاً ليسدّ تلك الآلام التي نغصت عليه العيش.

الرّؤية ما بعد الاستعماريّة

قبل أن نتم أي تعريف عن الرؤية والحديث عنها لابدّ من التوقّف عند مصطلح ما بعد الاستعمار ومفهوم هذا المصطلح. النظريّة ما بعد الاستعماريّة أو ما بعد الكولونياليّة هي النظريّة التي تكون واسطة عقد الدراسات ما بعد الاستعماريّة في العهد الحديث. تعرّضت نظرية ما بعد الاستعمار لتعريفات وآراء مختلفة كما أنّه ظهرت هناك بعض الموضوعات الفرعيّة التي قد تُعدّ في إطار النظريّة ما بعد الاستعمارية. النظرية ما بعد الكولونياليّة أو النظريّة ما بعد الاستعماريّة من النظريّات التي تربّعت على اهتمام علماء ونقّاد بارزين في الأدب الحديث والذي قد يكون إدوارد سعيد أهمّ هؤلاء النقّاد والباحثين حيث يعتقد إدوارد سعيد بأنّ «لزوم اقتفاء الأثر السياسي للكتابة، عبر قراءة ثقافيّة تُعيد النقد إلى العالم، فالنّص هو حادثة ثقافيّة لابدّ من ربطها بمظاهر الحياة السياسيّة والثقافيّة» (سعيد، ٢٠٠٠، ٧).

يزعم كثير من المؤرّخين والنقّاد بأن إدوارد سعيد هو من وضع اللبنات الأولى للنظريّة ما بعد الاستعماريّة والتي لمّح إليها في كتابه الاستشراق، «إذ يزعم سعيد بأن التواريخ الكولونياليّة التي تخبّرنا الكثير عن علاقات الهيمنة بين الشّرق والغرب أنتجت خطابات

الآخر الكولونيالي، وكانت بدورها أيضاً نتاجاً لعدد من هذه الخطابات فالشّرق مشكل على أنّه شيء يجب معرفته من خلال المجازات والاستعارات اللغويّة التي أعادت إنتاج علاقات الهيمنة، بل صارت الهيمنة شرطاً طبيعيّاً للعالم المستعمر وليست نتيجة للقوى الجيوسياسيّة بحدّ ذاتها» (لومبا، ٢٠١٣، ٧) ومن التعريفات الأخرى التي قد تكون وافية بالغرض فيما يتعلّق بالنظريّة ما بعد الاستعماريّة يمكن الإشارة إلى هذا التعريف: «نظريّة ما بعد الكولونياليّة هي في الحقيقة قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشّرق، من خلال مقاربة نقديّة بأبعادها الثقافيّة والسياسيّة والتاريخيّة وبتعبير آخر تحلّل هذه النظريّة الخطاب الاستعماري في جميع مكوّناته الذهنيّة والمنهجيّة والمقصديّة بغية استكشاف الأنساق الثقافيّة المؤسّساتيّة المضمرة في هذا الخطاب المركزي» (جديلي، ٢٠١٦، ٢٣٨) يعني أنّ نقطة اللقاء بين الشّرقي والغربي بإمكانها أن تشكل النّواة الأساسيّة للدراسات ما بعد الاستعماريّة وهذا لا يعني أنه يجب أن يكون حضور مستقيم للآخر في الأعمال الأدبيّة بل يمكن القول بأنّ كلّ الأحداث الروائيّة التي تكون في صلة مع الآخر ومع خطّاته لترسيخ قواعده في ثقافة الأمم الشرقيّة يمكن أن تُطالع في هذا السّياق.

أمّا بالنسبة إلى تعريف الدراسات ما بعد الاستعماريّة والتي تكون أكثر توسّعاً من النظريّة ما بعد الاستعماريّة فيعتقد أشكروفت بيل بأنّ مصطلح «ما بعد استعماري» «يستخدم ليشمل كل الثقافات التي تأثرت بالعملية الإمبريالية من لحظة الاستعمار حتى يومنا الحالي؛ ذلك أن هناك خطًّا متصلاً من الاهتمامات، على مدار العملية التاريخية التي بدأها العدوان الإمبريالي.. ونشير كذلك إلى ملاءمة المصطلح للنقد الجديد العابر للثقافات والذي ظهر في السنوات الأخيرة، وللخطاب الذي تكوّن من خلاله ذلك النقد. وبهذا المعنى، فإن كتابنا هذا – كما يقول بعض القائلين بنظرية «مابعد الاستعمار» –

يهتم بالعالم كما كان خلال فترة الهيمنة الإمبريالية الأوروبية وبعدها، وتأثير ذلك في الآداب المعاصرة... وعلى هذا النحو، تكون آداب البلاد الأفريقية، وأستراليا وبنجلاديش وكندا وبلاد البحر الكاريبي والهند ...كلها آداب «ما بعد الاستعمار»... وما يجمع بين هذه الآداب – بعد سماتها الإقليمية الخاصة – أنها ظهرت بشكلها الحالي في أعقاب تجربة الاستعمار، وأكدت نفسها من خلال إبراز التوتر مع القوة الإمبريالية، وبالتركيز على ما يميزها عن فرضيات المركز الإمبريالي. وهذا ما يجعلها آدابًا ما بعد استعمارية» .(Bill, 1989, 2)

وفقاً للشاهد السّابق تحاول دراسات ما بعد الاستعمار إلى دراسة وتحليل كلّ الأفكار والرّؤى التي تبنّتها الثقافة الغربية تجاه الشعوب التي تعدها خارج منظومتها أي بالأحرى في الهامش وفي محيط الدائرة التي شكلت الثقافة الغربيّة نواتها ومركزيّتها و« ولقد طرحت نظرية «مابعد الاستعمار» مجموعة من الإشكالات الجوهرية التي تتعلق بعلاقة الأنا بالآخر، أو علاقة الشرق بالغرب، أو علاقة الهامش بالمركز، أو علاقة المستعمِر بالشعوب المستعمَرة الضعيفة من جهة أخرى. وفتحت نظريّة ما بعد الإستعمار وحتّى الدراسات ما بعد الإستعماريّة باباً موسّعاً على مضامين لم يكن يتناولها النقّاد والباحثون في المئة سنة الماضية أو لم يتناولها الباحثون لم ينتبهوا إليها بشكل تخصّصي ومن هذه المضامين نشير إلى «ثنائيّة الشّرق والغرب» و«الدّفاع عن الهويّة الوطنيّة والقوميّة» و«المقاومة الماديّة والثّقافيّة» و«غربة المنفى» و«التعدّدية الثّقافيّة» (حمداوي، ٢٠١٨، ١٦٩) فيختلف الاستعمار وفق الرّؤية التي لمّح إليها النص السّابق أي فهناك استعمار ظاهري والذي يتمثّل في شنّ الغارات والعدوان على الشّعوب وهناك استعمار جديد يحاول امتصاص هويّة الشعوب واستلاب ثقافتها وتطويعه لما يكون في صالح البلدان الغربيّة.

الإغتراب

يعدّ الاغتراب من ملامح الكتابة الما بعد الاستعماريّة و«على الرغم من الحرية التي حصلت عليها الشعوب إلّا أن مشكلة جديدة ظهرت على الساحة ألا وهي أزمة الهوية/ الذات أمام الآخر ومن ثم ظهرت أزمات الاغتراب النفسي والمكاني، والإحساس بالدونيّة أمام الآخر.» (فراحتية وبوزيدي، ٢٠٢١، ٧٥٣) ولعلّ هذا الأسلوب من الكتابة هو أهمّ ميزة ظهرت في كتابة زهور ونيسي. ليست الشخصيّة الرئيسة فقط، بل العديد من الشخصيّات الثانويّة الأخرى في هذه الرّواية تشعر بالاغتراب. قُسّم هذا الاغتراب في الرّواية إلى أقسام متعددة، وهي عبارة عن الاغتراب المكاني، والزّماني والذّاتي ممّا يكثر من أهمية هذا الاغتراب هو أنه في مواضع كثيرة من الرواية يكون بمثابة فتح باب للحديث عن الاستعمار أو النتائج التي ورثها للشعوب.

الإغتراب المكاني

للمكان في الرّواية المعاصرة مفهومٌ خاص بحيث يمكن أن يتوصّل القارئ إلى معلومات جديدة بشكل غير مباشر عن الشخصيات والعناصر الأخرى بواسطة المكان ويمكن القول بأن المكان الروائي هو«الكيان الإجتماعي الذي يحتوي على خلاصة التفاعل بين الإنسان و مجتمعه. و لذا فشأنه شأن أي نتاج إجتماعي آخر يحمل جزءا من أخلاقيّة و أفكار و وعي ساكنيه. و منذ القدم و حتّى الوقت الحاضر كان المكان هو القرطاس المرئي و القريب الذي سجّل الإنسان عليه ثقافته و فكره و فنونه، مخاوفه و آلامه، و أسراره و كلّ ما يتّصل به و ما وصل إليه من ماضيه ليورثه إلى المستقبل» (نصير، ١٤٣٠، ١٦) من أهمّ ميزات المكان الروائى فى رواية جسر للبوح وآخر للحنين هو أنّ القارئ قبل أن يفتح الرّواية ويقرأ شيئاً عنها يواجه أهميّة للمكان في العنوان ويتصوّر بأنّ هناك جسور متعددة قد تكون مترابطة مع نفس الشخصية الرّوائيّة حيث تدل مفردتا

«البوح» و«الحنين» على أفعال نفسية تكون في علاقة مباشرة مع الاغتراب. حينما يعود كمال عطّار إلى مسقط رأسه، يبحث عن الظّواهر التي تآنس معها في الطّفولة لكنّه لم يجد معالم واضحة من معظمها فهو يشعر باغتراب تجاه الأمكنة. هذه الأماكن متعدّدة و تجلّى هذا الاغتراب المكاني أيضاً بصور متعددة. يبدأ الحديث في الرواية عن المدينة، وتحتلّ المدينة في الفصول الأولى دوراً مهمّا فهى بمثابة فتح باب لحديث الاغتراب والتلهّف والتشوّق؛

«مدينته الحبيبة جميلة خطيرة كمومس، حنون طيّبة كأم، ربّما غادرها وهو لا يهاب شيئاً، ورجع إليها وقد عرف كلّ أنواع الخوف، أصبح قادراً على شمّ الخوف من بعيد، أربعين سنة عاشها ملأى بالمفاجئات والأحداث، والحلو، والمر، كان وهو صغيرٌ يسمع كلّ متذمّر غاصب يهدّد بالانتحار من على الجسور، طريق الخلاص للأرواح المتعبة، خصوصاً الفتيات والنّساء الخطايا، فأيّ بيت في هذه المدينة يرضى بعد ذلك بإيواء الخطايا حتّى لو كنّ فلذات أكباد.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١١).

يحاول كمال عطّار أن يتطرّق إلى موضوعات متعددة تتعلّق بمدينتة في الطّفولة وأن يقارن بين الأحداث في الحقبتين كي يزيد القارئ بعدّة معلومات عن مدينته ويوضّح له النّقاط المشتركة والمتفاوتة في الحقبتين من الزّمن والمختصّة بالمدينة و«المكان يساهم في خلق المعنى داخل الرّواية و لا يكون دائماً تابعاً أو سلبيّاً بل إنّه أحياناً يمكن للرّوائي أن يحوّل عنصر المكان إلى أداة للتّعبير عن موقف الأبطال من العالم، و هذا ما فعله مارسيل بروست حين عمد إلى تدمير المكان الواحد و جعل الأمكنة دائماً متداخلة بحيث ينسخ أحدها الآخر في اللحظة الواحدة.» (لحمداني، ١٩٩١، ٧٠). «الخوف» من الطّوابع النفسيّة التي مازالت تحكم ضمير كمال العطار بعد السّنوات التي فارقها من موطنه، وهذا الخوف متجذّر في أيّام طفولته في مدينته قسنطينه فهو يذكر بأن

الجسور كانت مكاناً للانتحار، فالنّساء الخطايا وكذلك الأرواح المتعبة كانت تهدّد بالانتحار من على تلك الجسور وهذا الأمر بإمكانه أن يدلّ على الواقع الاجتماعي المتردّي الذي عاشه كمال عطار وكافّة أبناء جلدته في تلك السّنين.

لم يتحدّد كمال عطّار بذكر الهواجس والمخاوف والتلهّفات وكذلك الطّوابع النفسيّة تجاه مدينته بل يتعدّى تلك إلى ذكر بعض المعلومات التاريخيّة وذكر الأسماء والشخصيّات التاريخيّة التي أثّرت في تاريخ تلك المدينة؛

«هاهي كما عوّدتك بقلبها الكبير كهدير واديها وأحجارها، المدفونة حبات لؤلؤ نادرة، تموّجات الوادي تخفيها لتبرزها تارات، غضباً تارة وحنيناً وشوقاً أكثر من تارات. «ماسينسا» فارسها المغوار، عشقها أمّا فاتنة في الزّمان، وربط حنّاء عرسه بأطراف ضواحيها المبعثرة، وزرع قلبه عربون عشق دائم ووثيقة وحدة وانتصار» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١٣).

لم ينس كمال عطار الحديث عن جماليّات المدينة فهو يذكر هدير الوادي وحبّات اللؤلؤ وكذلك تموّجات الوادي ومن ثمّ يتطّرق إلى «ماسينيا» فارس هذه المدينة المغوار الذي كان شغوفاً بهذه المدينة و«في مرحلة ثانية يهتز المستَعمر ويقرّر أن يتذكر نفسه.. إنه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته، ويعود إلى أساطير عتيقة فيحاول إعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة.» (فانون، ٢٠١٥، ١٧٩) ومن الملاحظات الهامّة التي يجب أن يُشار إليها في هذا التحليل هي أنّ هذا التطرّق إلى المدينة ربّما يبدو عادّيّاً لكنّه في الحقيقة لم يكن بمعزل عن صفة الاغتراب تجاه المكان الرّوائي لأنّ مقام البحث ليس مقام تقديم المعلومات عن المدينة، بل المقام مقام تلهّف وتشوّق وتوجّع ولذلك فكمال العطّار ينظر إلى القضايا التاريخيّة من منظور طابعه

الاغترابي، فهو في تطرّقه إلى مدينته يغرق في الأفكار ولم يدع شاردة ونافرة إلّا ويتحدّث عنها.

الإغتراب الزّمني

الاغتراب الزمني هو أنّ المغترب يصعب عليه قبول الواقع وقبول الزّمن الذي هو فيه بتغيّراته وملامحه ويمكن القول بأنّ هذا النوع من الاغتراب يظهر عندما يعيش الإنسان في ماضيه بدلاً من قبول الواقع أو عكس ذلك و«يتجلّى في عدم تقبّله وتحقيره وعدم الانتماء إليه، فهو حاضر الهزائم والانكسارات العربيّة المتلاحقة والعقم والتخلف المزري» (بركات، ٢٠٠٧، ١٧١) من ملامح الاغتراب الزمني لرواية زهور ونيسي؛

«أيّها الزّمن لماذا تغتصب براءتنا؟ لماذا تتركنا أبرياء، كما ولدنا؟ لماذا تقحم أحداثك ونواياك الشّريرة في حياتنا، فتترع عنّا ثوب البراءة وتستبدله بثوب الغشّ والخداع على النّفس أوّلاً، ثمّ على الآخرين من حولنا.» «ونيسي، ٢٠٠٦، ١٧).

تخاطب الشخصيّة الرّوائيّة الزّمن والسبب هو أنّها ارتأت بأن مرور الزّمن هو الذّي أدّى إلى تغيير أشياء كثيرة، فمرور الزّمن أدّى إلى فقد براءة الطّفولة للشخصيّة الرّوائيّة وكذلك إلباسها ثوب الغشّ والخداع، «فالزّمن ينساب تلقائيّاً إلى عمق وعينا فيحدّد مداركنا و مواقفنا و لغتنا... و يحمل معه ضمائرنا و تجاربنا من اللحظة الحاليّة إلى اللحظة التالية.» (ديفيز، ١٩٩٦، ١١)هذا الخطاب والإنتباه إلى الزّمن ظهر إثر الاغتراب الزّمني للشخصيّة حيث تستذكر الشخصيّة الرّوائيّة الزّمن الماضي وجماليّاته، وتشتاق وتتلهّف إلى الزّمن الماضي الذي لم يعهد مدينته على ما هي عليه اليوم ومن التقنيات التي زادت من الطابع الاغترابي حول الزّمن هي أن الشخصيّة بدت تتحدّث مع الزّمن كأنّ لا أحد يدركها فلجأت للزّمن وجعلته مخاطباً لكلامها.

من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن الإغتراب الزّمني في الرّواية؛

«أعلم ذلك لكن دعيني أسافر عبر سنابل الزّمن، ثمّ ستجدينني قد عدت إليك، إنّني لن أهرب منك أبداً بعد اليوم، وأنت حلمي الأوّل والأخير، دعي جسمي يرحل عبر المسافات والأمكنة روحي ستعود إليك، أمّا قلبي فقد تركته من البداية عندك، بنبضاته وهويّاته الولهى، توسّدي عليه،إنّه أكثر دفئاً من نار مدفئة خشبيّة في سرايا التاريخ.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢١).

خاطبت الشخصيّة الرّوائية في الشاّهد المسبوق الزّمن الرّوائي، لكنّها في هذا الشّاهد تخاطب المدينة وكذلك تحكي للمدينة عن الزّمن، تعتقد الشخصيّة الرّوائية أنّ الزّمن هو الباب الذي يسهل منه الدخول إلى المدينة ولذلك تطلب من المدينة أن تسمح له السّفر عبر سنابل الزّمن، كأنّ الشخصيّة لشدّة التشوّق والتلهّف إلى ماضيها تتشبّث بكلّ شيء للوصول إلى مدينته وجمالها السّابق، فهي وإن تعرّضت للتغيير الذي نتج عن الزّمن ومروره لكنّ قلبها بقى عند المدينة منذ البداية بنبضاته وهويّاته. وتعتقد الباحثة بأنّ الاغتراب هي الصفة التي ميّزت هذه الرواية عن باقي الروايات ولذلك نرى بأنّ هناك تداخل بين ملامح الاغتراب حيث يقترن الاغتراب الزمني بالاغتراب المكاني فـ «إذا كان الزّمن يمثّل الخطّ الذي تسير عليه الأحداث فإن المكان يظهر على هذا الخيط و يصاحبه و يحتويه فالمكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث.» (قاسم، ٢٠٠٤، ١٠٦) وأرادت الشخصيّة بوصفها للزّمن أن تصوّر للقارئ مدى اغترابها الواسع ولذلك تقول بأنّ جسمها يستطيع أن يرحل عبر المسافات والأمكنة وكذلك قلبها أكثر دفئاً من نار مدفئة خشبيّة في سرايا التّاريخ أي أنّه يحمل تشوّقاً وتلهّفاً يفوق على ما شاهده التّاريخ بعينه. من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن الاغتراب الزّمني في الرواية؛

«هاهو لايريد أن يختزل الزّمن، بل يمدّده عبر الستّين عاماً الضّائعة، ويحاول أن يمدّه بالقوّة والاستمرار والتمدّد، رغم أنّه ما ينوي القيام به هو زيارة مقبرة للمسلمين وليس

اليهود، وكلّ ترابها يستدعي خفّة الوطء. كان يمشي وهو محتار: هل هي فعلاً سنوات ضائعة؟ ولماذا يستعمل هذه الكلمات الكبيرة؟..» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١٥٦)

يحاول الرّاوي أن يقوم بنقل فكرة الشخصيّة الرّوائيّة حول الزّمن ولذلك يسعى لتصوير المشهد الذي يدور في خُلد الشخصيّة حول الزّمن الروائي. التعجّب من سيرورة الزّمن وكذلك الشّعور بالألم من هذا الحدث والشّعور بالتعجّب والتوجّع والتحسّر على سيرورة الزّمن من أهم الملاحظات التي يمكن أن تُشاهد في الشاهد السابق. فالزّمن الذي هو يشكل عمر الشخصيّة ضاع من دون أن يشعر بملذّات فيه فهوى يرى بأنّه لا زمن أمامه وهو تارة أخرى يستعيد الفكرة وكأنّه يتردّد بالنسبة إلى ضياع عمره وقد يكون تصوير الاغتراب الزمني أكثر صعوبة من الاغتراب المكاني حيث «المكان ثابتٌ نسبيّاً أمّا الزّمان فمتغيّرٌ وبالتالي تأثيره على الإنسان أكثر غموضاً أيضاً» (العبد الله، ٢٠٠٥، ٢٨) الحديث عن المقبرة يصور لمحة أخرى عن الاغتراب الزمني حيث يذكر الشخصيّة الروائيّة بالأيام التي مضت في عشق الفتاة اليهوديّة ونظرته بالنسبة إلى اليهود أمّا المشي بخفّة الوطء كأنّه إشارة إلى الفرق بين مقابر المسلمين والآخر اليهودي حيث تكون قبور المسلمين غير بارزة الوضوح لكن قبور الآخر فهي مزيّنة وجميلة وهذا ما تحدّثت عنه الشخصيّة في الروايّة.

الإغتراب الذّاتي

يعدّ الاغتراب الذّاتي من أهمّ أقسام الاغتراب في رواية جسر للبوح وآخر للحنين و«الاغتراب عن الذّات هو الحالة التي يصبح فيها الشّخص ببساطة غير مدرك لما يشعر به حقيقة، ويحبّه ويرفضه، ويعتقده، ولما يكونه في الواقع.» (الشتا، ١٩٨٤، ١٦٧). كما أشير في موضوع الاغتراب المكاني، يحمل العنوان دلالة على المكان

الرّوائي لكنه في الحقيقة لم يتحدّد عنوان الرّواية بهذه الصّفة بل يتعدّاها كي يدلّ على أشياء أخرى كثيرة تشحن ذاكرة القارئ بمعلومات أخرى منها أنّ العنوان بإمكانه أن يدلّ على شيئ من الإبهام والغموض؛ أي جسر للبوح وآخر للحنين، كأنّ الجسور حتّى وإن يجهلها القارئ، كانت في الماضي موضعاً للبوح بالأسرار لكنّها أصبحت فيما بعد موضعاً للحنين وهذه الملاحظة بإمكانها أن تُشير إلى صفة نفسيّة لو لم نقل تشير بشكل مباشر إلى الاغتراب الذّاتي، لأنّها تدلّ على التغيير والتحوّل بين أمرين أصبحت الشخصيّة الروائيّة بين الأمرين.

من الشّواهد التي بإمكانها أن توضّح فكرة الاغتراب الذّاتي للشخصيّة الرّوائية؛

«ها أنا أعود لأبحث في عيون النّاس، ووراء الأبواب المغلقة والمشرعة، أبواب تذهب من الصّدئ ليصدأ فيها الحلم الصّغير، بدل أن يتورّد، وينشر مواسم عطره على بقايا الرّسوم والأطلال، ليبدو قلبي وقد فاض بما ألقي فيه وأنا بعيدٌ عنك.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ١٨).

لم تكن الشخصيّة الروائيّة في صدد تصوير الحزن والهمّ والألم من دون إمزاجه ببعض الصّفات التزئينيّة التي تساعد القارئ على تكملة القراءة، ففي الشّاهد السّابق على الرّغم من أن الشخصيّة تصوّر مدى اغترابها النّفسي لكنّها كذلك تُشير إلى جماليّات الموقف والمشهد. فهي تحكي عن الحلم الصّغير وكذلك نشر مواسم العطر و فيضان القلب بالتلهّف والتشوّق ممّا يزيد ويقوّي وقع هذا الحديث على الأسماع أي كأنّ كلّ شيء تغيّر مفهومه عند الشخصيّة الروائيّة، كأنّها لم تشعر بالعواطف والأحاسيس والذاتية التي كانت عليها سابقاً في أيام الثورة والتحرير.

فكرة الحديث مع المدينة والبوح بالهواجس والعواطف والأحاسيس من التقنيات التي استعملتها زهور ونيسي في رواية جسر للبوح وآخر للحنين وهذا الأمر من الميزات

المهمة للروائيّة في تطرّقها إلى موضوع الاغتراب،وهذا يعني أنّ الشخصيّة الرّوائية حاولت أن تسلك مسلك المجاراة أي «المجاراة لكلّ من الأهداف الثقافيّة والوسائل المنتظمة، فالمسايرة الأتوماتيّة باعتبارها مظهراً من مظاهر الاغتراب، والتي اعتبرها فروم إحدى مكانيزمات عمليّة الهروب من الحريّة.» (الشتا، ١٩٨٤، ١٥٢) والمجاراة ظهرت في رصد الشخصيّة المغتربة للأخبار والأحداث التي المتعلّقة بالوطن، فالشخصيّة لم تختر التمرّد والثّورة أو الانسحاب أو الإبتكار والتجديد، بل حاولت أن تُحافظ على كلّ الأشياء التي تربطها بموطنها الرّئيس فكأنّ الشخصيّة الرّوائيّة لاتجد أحداً تحكي له هواجسها وألمها الدّاخلي، أي لا ترى أحداً يفهمها و يدركها ومن الأسباب الأخرى لمخاطبة المدينة هي أنّ «الأرض» والحديث عنها أصبح من الموضوعات المهمة في هذه الرّواية حيث ساعدت على تصوير الاغتراب الذاتي للشخصيّة الروائيّة: «بعد هذا البوح، نظراتك يا حبيبتي أراها ساهمة، لكنّها كافية لبعث الحنين، وأنا أعود إليك طاهراً بلا ذنوب وبلا آثام، سوى إثم واحد، أنّني رجعت إليك روحاً نقيّة طاهرة، بعد أن كانت روحاً ملآى بالذّنوب، وأنت سبب كلّ الذّنوب، لأنّك تركتني أفارقك كلّ هذا الزّمن.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٦).

من المنعطفات المهمة والتي زادت الاغتراب الذّاتي للشخصيّة الرّوائيّة جدلاً هي أنّ كمال عطّار يُخيّر بين أمرين؛ إمّا أن يخضع لعشق الفتاة اليهوديّة إمّا أن يجتنب هذا الفعل الذي لايجلب إلّا العار للعائلة ولذلك يضع في مفترق طريقين يكاد يودي به إلى الجنون، أمّا بعد أن بلغ كمال عطّار مرحلة وعي الذّات، انقلبت المسألة رأساً على عقب و«يكشف تيّار الوعي عن الوعي الباطني من خلال الحديث النفسي للشخصيّات التي يتجاوز كثيراً من الأحداث المهمّة، تاركاً للقارئ استنتاجه، ويعتمد الرّوائي في إضماره على الرّجوع الزّمني أو تقدّمه من خلال تداعي المعاني في ذاكرة الشخصيّات وعقلها

الباطني.» (هلال، ١٩٧٣، ٥٢٠) فأصبحت المدينة حبيبته وعشيقته ولذلك يخاطبها في الشّاهد الماضي بالحبيبة. فالأرض أو المدينة هي التي أدّت إلى تلهّف الشخصيّة الرّوائيّة ولذلك ربّما يظنّ القارئ بأنّ هذا الحديث مع المدينة إلى درجة ما يكون خارجاً من العادة وهذا الأمر يدعم فكرة الاغتراب الذّاتي للشخصيّة تماماً فالشخصيّة الرّوائيّة كما ذُكر في الشّاهد تستعيد الماضي وتبحث عن الأسباب التي أدّت إلى اغترابها الذّاتي وأزمتها النفسيّة.

لم يكن حديث النّفس الطّريقة الوحيدة التي حاولت الشخصيّة الرّوائيّة أن تبثّ شكواها واغترابها بواسطته بل كذلك أضفت الروائيّة قارئها في الكثير من الأحيان بملامح الاغتراب من نوع آخر أدّت إلى أزمة في ذات الشخصيّة الرّوائيّة؛

«في الماضي كان كمال عطّار يتصوّر بيته هذا أجمل البيوت، وأنظفها، واليوم لا يدري لماذا يجده أشبه بوكر لا يليق برجل محترم مثله، رجل زادت شعيراته الفضيّة، التي تلوّن شعره وقاراً وهيبة، وأضفى عليه دوره في الحياة كإطار سام في دواليب الدّولة غموضاً لا هو بمشاعر الفخر ولاهو بمشاعر الخوف، كم سمع وردّد واقتنع المسؤوليّة تكليف وليست تشريفاً، إنّه يراها اليوم خوافاً ورهبة، ليس بسبب عدم قيامه، ولكن بسبب تجاوزات غيره.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٧).

الماضي هو الحجر الأساس الذي تجلّت فيه ملامح الاغتراب، بما أنّ كمال عطّار قضى أعواماً كثيراً من عمره خارج البلاد، فحينما لا يرى حين رجعته معالماً بارزة من ماضي المدينة تساعد على سدّ فراغ نفسيّاته ولذلك كأنّه يسلّط الضّوء على نفسه و ما اعتراها من تغيير فبيت كمال عطّار كان أجمل البيوت أمّا الآن وهو رجع بعد سنين عدة يرى أنّه لا تكون هناك ملائمة بين السّكن وبينه حيث «بيت الإنسان امتداداً لنفسه، إذا وصفت البيت وصفت الإنسان.» (بوتور، ١٩٨٢، ٥٣) الملاحظة في الشّاهد السّابق

هي أنّ الرّوائي بشكل غير مباشر يصوّر الذّات واغترابها وهاجسها بواسطة نظرتها إلى المكان.

الآخر اليهودي والمستعمر

دراسة صورة الآخر اليهودي وموقف الأنا من الآخر من أهمّ الموضوعات التي نراها في الدراسات ما بعد الاستعماريّة «فحرص الغرب على تعميم تجربته الثقافية والروحيّة والماديّة، إنّما يقوم على إفراد ملامح الأوج والقدرة على الشّمول ليكون المسعى نحو فرض النموذج الواحد، التعالي على المجمل من المكوّنات الأصليّة التي تقوم عليها ثقافة الآخر.» (كارتر، ٢٠١٠، ١٢٨) تساعد دراسة صورة الآخر في أغلب الأحيان على تبيين الفكرة العامة لكلّ شعب عن الشعب الآخر. كما لمّحنا سابقاً، يقع كمال عطّار في حُبّ فتاة يهوديّة لكنّه يكتم هذا الحُبّ في البداية كي يجد الحلّ الأمثل للبوح بهذا السّر والوصول إلى هذا العشق ولذلك يحاول أن يحلّ القضيّة مع نفسه أوّلاً ومن ثمّ يشاركها أمّه، لكن موقف الأم هو الذّي وضّح لكمال مدى خطورة القيام بهذا الأمر؛ «يهوديّة..، هكذا مرّة واحدة، إنّك تقضي علي يا بني، قبل الأجل..تصوّر والده يقول ذلك، وهو الرّجل التقي الحافظ للقرآن، المقيم لشعائر الدّين، والمحافظ على التقاليد، والوطني المدافع عن الدّين والعروبة، بل إنّه تصوّره لا ينطق وإلى الأبد، عندما يعلم أن ابنه الوحيد يحب يهوديّة، تصوّر نفسه لحظة أنه اعترف بسره هذا، وأنّ والده لفظ أنفاسه الأخيرة عندما سمع ذلك.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٣٢).

لم يكن يتوقّع كمال عطّار مثل هذه الرّدود من قبل العائلة، لكنّ أمّه نبّهته بالنّسبة إلى موقف أبيه من هذه القضيّة. فكرة موت الأب بعد استماع خبر حبّ الإبن لفتاة يهوديّة يكفي لمفارقة الحياة، فالأب من مدافعي الدّين والعروبة. هذا المشهد يصوّر للقارئ الأزمة التي وقع فيها كمال العطّار. فهو الإبن الوحيد لهذه العائلة وعليه أن يتردّى ثوب

الدّفاع عن الدّين والعروبة شأن أبيه وعليه أن يكون قدوة للآخرين ومن الملاحظات الأكثر أهميّة لهذا الشّاهد هي أنّ الرّوائي أراد أن يصوّر نظرة العربي الجزائري إلى الآخر اليهودي فيحكي الشّاهد عن ابتعاد المواطنين أشدّ الابتعاد عن الامتزاج باليهود و«أهميّة صورة الآخر في أدب أي أمّة أنّه يكشف الحقائق العميقة لهذه الأمّة في أعين أبنائها، والمكوّنات الأهم لهويّتها، لأنّهم يتناولون الآخر ويتحدّثون عنه بإبراز الجوانب التي يرون أنه يخالفهم فيها.» (الحربي، ١٤٤١، ١٦٤) وكافّة الشواهد المذكورة بتفاصيلها تحكي عن موقف الشّعب الجزائري ورؤيته للآخر اليهودي حيث هذا الأسلوب في الكتابة ما بعد الاستعماريّة يكون ردّاً على الآخر الذي وضع الذات والشخصيّة الجزائريّة في الهامش.

من الصّور الأخرى التي لمّحت إليها الرّواية فيما يتعلّق بالآخر اليهودي هي صفة الوحدة بين اليهود فهم يدٌ واحدة، يدعم بعضهم البعض يعني أنّ الرّوائيةلم تكن تتجاهل بالنّسبة إلى خصوصيّات وميزات الآخر اليهودي بل حاولت حتّى الإمكان ترسم هذه الميزات للقارئ وتنبّه الأنا بأنّ الآخر قد يمتلك صفات لم تكن تمتلكها الأنا وهذا الأمر يحكي عن انتباه الأنا إلى الآخر، إلى تصرّفاته، ميزاته وأخلاقيّاته؛

«يجب أن نفعل مع إخواننا العرب ما يفعله اليهود في الخارج مع إخوانهم، ألا تراهم يفعلون ذلك بمختلف مستوياتهم، الفقير منهم والغني، تجّار الذّهب وتجّار الخشب، كلّهم يفعلون ذلك بتضامن أكبر» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٣٣).

كما ذكر في الشّاهد تحاول الشخصيّة الرّوائيّة أن تقوم بأخذ الدّرس من اليهود فهي تذكر بمدى اتّحاد اليهود ومدى استيعابهم لمثل اليد الواحدة لاتصفّق فحاولوا أن يساعدوا بعضهم البعض للوصول إلى نواياهم غير شرعيّة في احتلال أرض العرب أمّا العرب

فهم أين يقفون من هذا الموقف الذي كان من الضروري أن يعملوا به. الشّاهد التّالي من الملامح الأخرى التي تقوم برسم صورة الآخر اليهودي في الرّواية؛

«نصرانيّة ولا يهوديّة، إنّ اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز، أعداؤنا وأعداء نبيّنا وديننا منذ الأزل، وإلى أبد الآبدين، ما الذي تريد أن تفعله بوالدك يا كمال، أبوك وطني مكافح من أجل حريّة الجزائر وفلسطين، ويحز في نفسه اليوم أن تنسى ذلك، حتما تريد أن تقضي عليه قبل الأوان، يهودية هكذا مرّة واحدة..» (المصدر نفسه، ٣٥).

يحكي الشّاهد عن عظمة القضيّة الفلسطينيّة ومدى أهميّتها، حينما يواجه القارئ هذه الشّواهد وهذه الصّور التي رسمتها الشخصيّات الرّوائيّة ربّما يظنّ بأنّه أمام رواية فلسطينيّة لا جزائريّة هذا يعني أنّ زهور ونيسي أرادت أن ترسم مدى أهميّة القضيّة الفلسطينيّة في العالم العربي حيث كانت ومازالت أهميّة هذه القضيّة تضاهى القضيّة الجزائريّة. وهذه الأحاديث ليست إلّا حديث معاناة شعب لايستطيع أن يوصل صوته إلى العالم وهذه الأصوات «تحاول لفت أنظارنا إلى الأكثريّة الكبيرة المستعمرة التي لم تترك لها أثراً في التاريخ، لأنّها لم تستطع إيصال صوتها إلى الآخرين، أو لم يُسمح لها بذلك» (برتنز، ١٣٨٢، ٢٦٩) ترى الشخصيّة الرّوائية بأنّ الاختلاف والعداء مع اليهود أمر جذري فهذا العداء كان منذ زمن النّبي وسيبقى إلى أبد الآبدين.

من الشّواهد الأخرى التي تحكي عن الآخر المستعمر؛

«إنّ الاستعمار يحاول أن يحافظ علينا أصحاء لخدمته، وخدمة مستعمراته، سواعدنا وعقولنا، إنّنا بالنسبة إليه الجنود عند إعلانه لحروبه، والبناة في عملية التعمير والبناء، عكس ما يفعله مع جيراننا، إنّه يراهن على بلادنا وشعبنا أكثر، إنّنا بالنسبة إليه جزء من الوطن الأم، لذلك طال استعمار الاستيطاني لبلادنا.» (المصدر السّابق، ١١١).

يحكي الشّاهد السّابق عن مدى تأثير الآخر المستعمر على الشّعب العربي الجزائري، فكما تُشير الشخصيّة الرّوائيّة في السّنوات التي كانت الجزائر مستعمرة للبلدان الغربيّة، استطاع الآخر المستعمر أن يحتلّ مساحة واسعة من حياة العربي الجزائري حيث وصل هذا الأمر إلى درجة كان الاستعمار يراهن على هذا الشّعب من دون كافّة مستعمراته و«شكلت الثّورة نقطة تحوّل أساسيّة في مسير التجربة الروائيّة الجزائريّة، حيث أصبح الحديث عن الثّورة والنّهل منها اعتباراً ضرورياً في الكتابة الرّوائيّة، سواء بسرد بطولاتها أم بتشكيلها، وحتّى وإن شكلت توجّهات تنتقد منطقها ونتائجها وتطعن في إنجازات بعض القائمين بها، فإنّها تُجسّد تصوّر البطل النموذجي وصناعة الوعي على الرّغم من أنّ التعامل مع الثّورة وصف بالسطحيّة أحياناً والمثاليّة والاحتفاليّة التي لم تتجاوز حدود الانعكاس.» (بلعلي، ٢٠١١، ٥٢) وأرادت الرّوائيّة من خلال هذا الشّاهد أن تقوم برسم فضاعة الاستعمار الغربي وكذلك صعوبة تحرر الجزائريّين من هذا الاستعمار، الاستعمار الذي استطاع أن يخيّم على كافّة جوانب حياة العربي الجزائري.

التحرير وذكرى الوطن

بعد أن كثرت الرواية الجزائرية التي حاولت أن تقدس مبادئ الثورة والدفاع عن الوطن وتوعي الشعب بالنسبة إلى مكانة القضيّة الجزائرية وضرورة تحريرها من الآخر المحتل سلطت الرواية الجزائريّة الضّوء على المشاكل الكامنة ومظاهر الإستعمار والإحتلال البارد والحديث الذي بدأ يؤثّر على ثقافة الشعب الجزائري ومساراته السياسية.فلمت رواية جسر للبوح وآخر للحنين بين دفّتيها أحاديث كثيرة حول تحرير الشعب الجزائري ممّا يعزز دور الروائية وأهميّتها بالنسبة إلى هذا الأمر و«تعتقد ونيسي أن للكتابة مهمّة نبيلة لها مبادئها القوية، أهمّها الإلتزام نحو قضايا الشعب، ومبادئ القلم كمبادئ صاحبة، إمّا قويّة عنيفة أو تافهة مهزوزة، والمحافظة على مبادئ وأخلاقيّات هذا القلم هي أفضل

وأصلح الوسائل للوصول بهذا القلم إلى أهدافه مهما كانت قويّة وعنيفة.» (أرزقي، ٢٠٠٦، ٧٩) فأتت فكرة التحرير وذكرى الوطن عند زهور ونيسي تختلف عن الأفكار والأساليب التي سلكتها الروائيات الجزائريّات الأخر حيث حاولت زهور ونيسي أن تمعن النظّر في قضايا أكثر خطراً وأعظم شأناً، من الشواهد التي تحكي عن قضيّة تحرير الجزائر؛

«الديموقراطيّة قيمة تظريّة رائعة، لكنّها لاتستورد هكذا، بين يوم وليلة، أو محمولة على دبّابات الاحتلال والتبعيّة، ولكنّها تؤسّس وتنمو مع الانسان عبر التربيّة والتعليم، والحوار والاحترام المتبادل والحسّ الحضاري بين الأفراد والجماعات.» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٤٨).

عبّرت الروائية من خلال الحوار الذي يدور بين السيد أحمد وكمال عطّار عن ضرورة التعرف على الديموقراطية والفرق بين الديموقراطية التي ينادي بها الإحتلال والديموقراطية حسب مفهومها الصحيح وهذا الأمر يحكي عن عدم وعي الكثير من الشّعب الجزائري بخطط الآخر الباردة والتي قد خدعت الكثير من النّاس حيث كانوا ينظرون إلى الآخر نظرة إنبهار وتعالٍ. ومن ملامح انتباه الشخصيّة الروائية إلى مظاهر الإحتلال الحديث والتي يعدّ أمراً مهمّاً في تحرير الوطن؛

«إنّهم يريدون أن يصدروا لنا قيمهم عبر منظور احتلال جديد، أو عن طريق تقزيمنا والتشكيك في قوّتنا الذّاتية، أية ديمقراطيّة هاته التي تفرض على شعب رغماً عنه، على أنّها الاختيار الأفضل من كلّ الاختيارات السّابقة واللاحقة؟ إنّ ذلك ينافي المفهوم الحقيقي للديمقراطيّة، في بُعدها الأساسي التحرّري، وبعدها في الاختلاف الفكري بين البشر.» (المصدر نفسه، ٢٤٨).

أرادت الروائية أن تزيد توعية الشعب بتصوير الخطط التي بدأ بتنفيذها في الجزائر. كانت تعتقد زهور ونيسي بأن المرأة وخاصّة صاحبة الفكرة يجب أن تخوض معارك جديدة ومن نوع آخر ولذلك تكون الموضوعات التي تطرحها زهور ونيسي في خدمة كيان الوطن وكذلك الأزمات والتحديات التي تواجه هذه المرأة في وطنها الجديد الذي

راح يؤثّر عليه الآخر و«قد كان أهم ميدان لهذه المعارك الجديدة هو؛ أن تتجاوز أبجديات الكتابة والإبداع عند المرأة مرحلة التردد والهواية، إلى مرحلة النضج والجديّة والغزارة، والإبداع الفني، واكتساب الخبرات في الأسلوب والتعبير، والجرأة في الطرح.» (يمينة، ٢٠١٥، ٢٥١) ولذلك نرى بأن تجربة زهور ونيسي في تناولها الكثير من الموضوعات حول الوطن وانتباهها بالنسبة إلى الإحتلال الثقافي واستيلاب هوية الشعب الجزائري جاء قويّاً ومتميّزاً عن باقي الروائيّات الجزائريّات حيث طرحت زهور ونيسي قضايا سياسية واجتماعيّة جدّية بالنسبة إلى الديموقراطيّة واستلاب هويّة الشّعب الجزائري.

ذكرى الوطن من الموضوعات التي تدخل حقل الكتابة الرّوائية ما بعد الكولونياليّة. يشكّل الوطن الوتيرة الهامّة للرواية الجزائريّة. فالرّواية الجزائريّة في السبيعينيّات من القرن الماضي وحتّى الآن لم تكن بمعزل عن الحديث عن الوطن «والرواية النسوية الجزائريّة لم تعد تقتصر على معالجة هموم المرأة ومعاناتها، ولم ترتكز على تيّمة المشاعر والمراوحة في فك المطالبة بالحقوق في عراك ضدّ القمع والتمييز، وإنّما أخذت تستغل الآليّآت الفنيّة المتاحة وتشتغل على تجريب أساليب إبداعيّة جديدة لمواكبة القضايا السياسيّة المصيريّة وطنيّاً وعربيّاً، كما ألحّت على أن تُشارك بآرائها في طرح مشكلات الفرد وهمومه، مستندة على ماتحفظه الذاكرة التاريخيّة الوطنيّة وما يقدّمه التراث الشّعبي من طقوس وعادات وأساطير.» (عمّاري، ٢٠١٧، ٣٨٨) لكنه يجب أن نذكر بأنّ هذا الموضوع نفسه جاء على أشكال تختلف عن الأشكال والملامح التي ظهر فيها منذ بداية الرواية الجزائريّة، فنرى بأنّ الوطن ظهر في رواية جسر للبوح وآخر للحنين بثوب جديد؛

«ما الخلل الذي أصاب آلة الحياة في المدينة؟ وما الغبار الذي علق في دواليبها؟ وما هذه الحشرات السّامة التي ما فتئت تبيض وتفرخ في أركانها وزواياها؟ وهذه الطّحالب

والأشواك والصبّار والعليق، الذي ارتوى بماء كان يجدر أن ترتوي به الورود والزّهور والرّياحين؟ أين الذي يقدر اليوم على إزالة هذه السّموم والأوحال والنّفايات من آلة الحياة ودواليبها؟» (ونيسي، ٢٠٠٦، ٢٢٥) ربّما لم تكن هناك روائيّة جزائريّة تناولت المدينة أو مسقط رأسها على هذا الشكل. بما أن رواية جسر للبوح وآخر للحنين تُعدّ من روايات السيرة الذاتيّة لكن الروائيّة أجادت في وصف شعورها وعواطفها أمام الوطن فمثّلت مدينة قسنطينة هيام الروائيّة بالوطن فرواية جسر للبوح وآخر للحنين هي تعبير عن ذلك الشّعور الاغترابي والتوجّع لبلاد تعرّضت لشتّى الحملات والغارات من قبل الآخر لكنها بقية صمودة أمام تلك المؤامرات.

الخاتمة

تطرّقت الرّوائيّة برؤية ما بعد استعماريّة للقضيّة الجزائريّة حيث لم تكثر الرّوائيّة عن الموضوعات المكرّرة عن الوطن وسنوات التعذيب والضياع والاستعمار بل حاولت أن تطرح قضايا جديدة منها التنبيه إلى قيمة الثّورة التي نالتها الجزائر وكذلك ضرورة الاحتفاظ بهذه الثورة وعدم السّماح للآخر المترقّب والذي أخذ ينفّذ خطّاته بشكل جديد بين الشّعب الجزائري وروّاد الثورة لتدمير هذا البناء.

من الأساليب أو الموضوعات التي تحكي عن رؤية الكاتبة ما بعد الاستعمارية هي قضيّة الاغتراب على أشكاله المتنوّعة والذي اختصرنا بذكر الاغتراب المكاني والذاتي والزّمني. ومن الموضوعات الأخرى التي ساعدت الروائيّة على التعبير عمّا يدور في خلدها هي قضيّة الآخر وتناوله من جانب الشخصيّات الجزائريّة وتحليل خطّاته وأفكاره

التي راحت الرّاوئيّة توعّي الشّعب بالنّسبة إليها وخاصّة ذلك الاستعمار الذي يبدأ من بين الشّعب الجزائري. فكرة التحرير وذكرى الوطن من الموضوعات الفرعيّة الأخرى التي عبّرت عن فكرة الروائيّة ورؤيتها الما بعد استعماريّة.

ظاهرة الاغتراب على أشكالها الثلاثة أي الاغتراب المكاني والزّماني والذّاتي من الموضوعات والأساليب الأكثر أهميّة والتي أجادت الرّوائيّة في أخذها أساليب للكتابة ما بعد الاستعماريّة بالنسبة إلى الموضوعات الأخرى فاستطاعت الرّوائيّة أن تعبّر عن استغرابها بالنّسبة إلى المظاهر الحديثة من أمكنة وأزمنة وقضايا داخليّة وحنينها إلى الماضي الجميل. ظاهرة الاغتراب ساعدت الرّوائيّة على التطرق إلى القضيّة الجزائريّة وبعض الأحداث التي شهدها الشّعب الجزائري في محاولات الأخر الغربي التي بدأها ينفّذها بعد الاستعمار المباشر ومن جهة أخرى هذا الاستغراب ساعد الشخصيّة على وضع الآخر في الهامش وحلولها هي الوتيرة المركزيّة من القضايا التي شغلت بالها واستدعت التأنّي والتفكير.

استطاعت الروائيّة أن تطرح رؤيتها في الموقف التي تتطلّبها القضيّة الجزائريّة في السنوات الأخيرة وهذا الأمر نفسه يحكي عن وعيّة الروائيّة بالنّسبة إلى عدم انتهاء النشاطات الاستعماريّة فظهرت هذه النشاطات على شكل جديد تتطلّب الرّد على أشكال جديدة أيضاً وهذا الأمر ما شاهدناه في محاولات الروائيّة في الرّد عن الكثير من أفكار الآخر الخطرة والتي ساندها فكرة الاهتمام بذكرى الوطن والدّفاع عن قيمة الحريّة

المصادر

١. عمّاري، هدى (٢٠١٧)، التمثّلات الثقافية في الخطاب ما بعد الكولونيالي، الرواية النسائية الجزائريّة أنموذجاً، مجلة دراسات أدبيّة، العلامة، العدد٤،

٢. سعيد، إدوارد (٢٠٠٠)، العالم والنصّ والثقافة، ترجمة عبد الكريم محفوظ، دمشق: منشورات اتحاد الكتّاب العربي.

٣. لومبا، إينا (٢٠١٣)، الكولونيالية وما بعدها، ترجمة باسل المسالة، دمشق: دار التكوين، ط١.

٤. جديلي، بسمة (٢٠١٦)، دراسات ما بعد الكولونياليّة من أبرز أقطابها، مجلّة إشكالات، درويّة نصف سنويّة محكمة، العدد التاسع،

٥. حمداوي، جميل (٢٠١٨)، نظريّة ما بعد الاستعمار، أطروحة في خدمة علم الاستغراب، السنة الرابعة، العدد ١٢،

٦. بوختاش، سناء (٢٠١٧)، استراتيجيّة التقويض بين إشكاليّة المفهوم ومأزق التطبيق في الرواية النسائيّة الجزائريّة المعاصرة (سأقذف نفسي أمامك لنديهيّة لويّز أنموذجاً)، مجلّة جيل للدراسات الأدبيّة والفكريّة، العالم الرّابع، العدد ٣٠،

٧. لحمداني، حميد (١٩٩١)، بنية النّص السّردي من منضور النّقد الأدبي،د. المركز الثقافي العربي للطّباعة والنّشر والتوزيع. بيروت؛
٨. ديفيز، ب.س (١٩٩٦)، المفهوم الحديث للزّمان و المكان، ترجمة عطا السيّد، مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتب.
٩. الشّتا، السيد علي (١٩٨٤)، نظريّة الاغتراب الاجتماعي من منظور علم الاجتماع، نشر عالم الكتب.
١٠. بوتور، ميشيل (١٩٨٢)، بحوثٌ في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت؛ دار عوينات للنشر.
١١. غنيمي هلال، محمد (١٩٧٣)، النقد الأدبي الحديث،د. نهضة مصر للنّشر و الطباعة و التوزيع.
١٢. ونيسي، زهور (٢٠٠٦)، جسر للبوح وآخر للحنين، نشر عاصمة الثقافة العربيّة.
١٣. قاسم، سيزا (١٩٨٥)، بناء الرواية «دراسة مقارنة في ثلاثيّة نجيب محفوظ»، دار التنوير للطباعة و النشر، بيروت.
١٤. الحربي، صالح بن عويّد (١٤٤١)، «دراسات صورة الآخر في الأدب العربي وأثر إدوارد سعيد دراسة مقارنة»، مجلّة جامعة طيبة، للآداب والعلوم الانسانيّة، السّنة السّابعة، العدد ٢٠،
١٥. برتنز، يوهانس ويليم (١٣٨٢)، *نظريه ادبي*، مترجم: فرزان سجودى، تهران: نشر دار آهنگ ديگر، الطّبعة الأولى.
١٦. بلعلي، آمنة (٢٠١١)، المتخيل في الرواية الجزائريّة (من المتماثل إلى المختلف)، الجزائر؛ دار الأمل للطباعة والنّشر.
١٧. أرزقي، فراد محمّد (٢٠٠٦)، جزائريات صنعن التاريخ، د. الأمل للطباعة والنّشر، الطبعة الثانية.
١٨. يمينة، بشي (٢٠١٥)، التجربة الإبداعية النسائية في الجزائر «إشكالات وقضايا في تجربة زهور ونيسي الإبداعية»، مجلّة إشكالات، دورية نصف سنوية محكمة تصدر عن معهد الآداب بالمركز الجامعي لتامنغست، الجزائر، صص ٢٤٧-٢٦٤.
١٩. حياة، حصباية (٢٠١٥)، اتجاهات الرواية في الأدب النسوي الجزائري، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم والحديث، جامعة زيّان عاشور بالجلفة.

٢٠.سعيد، إدوارد (٢٠٠١)، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، د.مؤسسة الأبحاث العربيّة للنّشر. بيروت

٢١.فراحتيه، نبيلة وبوزيدي، نعيمة (٢٠٢١)، تشظي الهويّة وانتشار الذّات في الخطاب الرّوائي الجزائري ما بعد الكولونيالي، قراءة في روايتي الانطباع الأخير وماتذروه الرّياح، مجلة علوم اللغة العربيّة وآدابها، المجلّد ١٣، العدد ١، ص ٧٧٠_٧٤٩.

٢٢.فانون، فرانز (٢٠١٥)، معذبو الأرض، ترجمة الدكتور سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مركز مدارات للأبحاث والنّشر، الطبعة الثالثة.

٢٣.بركات، عبد الرّزاق (٢٠٠٧)، الاغتراب في الشعر التركي والعربي المعاصر، الكويت: دار القلم، ط١.

٢٤.العبد الله، يحيى (٢٠٠٥)، الاغتراب، دراسة تحليليّة في شخصيّات الطّاهر بن جلّون، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط١.

٢٥.نصير، ياسين (١٤٣٠)، الرّواية والمكان، بغداد؛ د. الشؤون الثقافيّة العامّة.

٢٦.كارتر، ديفيد (٢٠١٠)، النظريّة الأدبيّة، ترجمة باسل المسالمة، دمشق: دار التكوين، ط١.

٢٧. [3] – Ashcroft, Bill, Gareth Griffiths, and Helen Tiffin: The Empire Writes Back: Theory and Practice in Post-Colonial Literatures, Routledge, London and New York, 1989, p: 2

.